



مجلة التراث

J-ALT

2018/ Vol:8 N°01

Available online at <http://www.asjp.cerist.dz>

دور وأهمية القصيدة الشعبية في حفظ الذاكرة الشعبية

الأستاذ نوري قسيمي، جامعة زيان عاشور، الجلفة. الجزائر.

تمهيد:

يعتبر التراث الشعبي بقطيعه المادي واللامادي خزاناً هاماً في حياة الشعوب قاطبة ، تنهل منه الأجيال بتعاقبها فهو زادها ومنبع مرجعيتها ثقافياً واجتماعياً .. ، ومصدر هويتها ، تستنطقه وتستلهم منه لتكوّن منه حصناً منيعاً لأجيالها إذا ما اهتمت به و اعتنت وأعطته ما يستحق من الاهتمام والدراسة الجادة . ولنا نماذج كثيرة من البلدان التي حققت طفرة في مجال النهضة والتقدم العلمي والتكنولوجي ، فكان حجر أساسها تراثها العريق بمختلف طبوعه ، فهو يجمع مختلف أنماط التفكير الشعبي حلوه ومره و تطلعاته و مجهوداته وإبداعاته خاصة في مجالات الأدب الشعبي التعبيرية من حكاية وشعر وأمثال و حكم و ألغاز ، ظلّ الإنسان يبدع ويلهم فيعبر عن مكبوتاته عن طريق الأغاني ، ليصنع جواً مؤثراً مستقطباً لطبقات المجتمع ، محققاً تواصلًا واستمرارية بين الأجيال . مما يفرض مساهمة الأقلام كلّ من زاوية اهتمامه الذي يؤدي إلى تكاثف الجهود و تحقيق الهدف المنشود ، في ظل توفر نِعم التواصل..

لذا وجب أن نساهم في محاولة إبراز دور الأدب الشعبي لما له من أهمية يزداد إدراكها يوماً بعد يوم باعتباره جزء هام من التراث الشعبي ، له خصائصه و مميزاته أظهرها أهل الاختصاص من باحثين ودارسين حدّدوا الأشكال ووقفوا عند النصوص وما تناولته من دلالات فكرية ثقافية واجتماعية ، فكان الشعر الشعبي على رأسها إذ استطاع الإنسان بواسطته التعبير عن خلجات النفس وواقع الشعوب ، مصوراً آمالهم ومعبراً عن أحزانهم وطموحاتهم ، وقد أدرك موقف الاستعمار من التراث منذ أن وطئت أقدامه أرضنا ، إذ تعتمد بوعي وإصرار محاربة التراث والعمل على طمسه وتشويهه ، فالاستعمار متيقن أنّ سر تماسك الأمة في تراثها الحامل لعناصر ثقافتها وأصالتها و مكانتها تاريخها وحضارتها .

وقد أدرك شعراء الشعب أهمية التراث ودوره الفعال في إيقاظ الهمم وبعث الشعور الوطني والقومي والحفاظ عليه، والعمل على إبقائه حيا متداولاً ، فكان التراث بمثابة الركيزة القوية استطاعوا من خلاله تحقيق التجاوب الأشمل مع شعورهم، فاستلهموا من التراث الشعبي وعملوا على توظيفه والتفنن في استخدامه ، وجعله دعائم هامة لعناصر الثقافة والأصالة والهوية ومرجعية الأمة ...

والمؤكد أنّ أمة بلا ماضٍ و جذور أمة لا مستقبل لها ، فالتراث و التاريخ العريق هما حجر الأساس في ربط الجذور وحفظ الهوية الوطنية وترسيخ وبعث دلالاتها وأبعادها ، بالتعبير عن وجدان الشعب نفسياً وفكرياً باعتبار التراث ثقافة الشعب التي تراكت ونتاجه الذي تطور وانتشر مرتبط بماضيه وتراثه ليكون روابط قوية بين أفراد المجتمع مهما تباعدت الأزمان والمسافات بينهم .

وإن اختلف الباحثون والدارسون في تحديد المصطلح نتيجة تداخل وجهات النظر من ملحون إلى زجل إلى عامي ، فكان لارتباط الشعر الشعبي بالعامة واعتماد الرواية الشفوية وغياب المؤلف الأثر الكبير في توجيه المصطلح ، باعتبار أنّ الشاعر الشعبي كان همه التعبير عن آلام وآمال الجماعة وتصوير همومها ، فلم تكن الشهرة منطلقه " إنّ الشعر الشعبي يتناسب ومسماه فهو إنتاج العامة وليس من إنتاج الخاصة ، فهو غذاء روحي للجماهير الشعبية تتمتع به في مستواها إذ هي التي أنشأته وأنشدته"¹ فكانت قصائد الشعر الشعبي بسيطة اللغة ، مستمدة من البيئة الاجتماعية فكرياً واجتماعياً - فالشاعر ابن بيئته - يعكس مظاهر البداوة التي هي سيماء أهل المنطقة بمختلف مناحيها المادية والمعنوية ، فوصف الخيل والأنعام و الخيم و الصيد ، وتغنى بالمرأة و الكرم والنسب ، كما سجل بافتخار الثورات ومقاومة الاستعمار ومجد الأبطال ، و رفع معنويات الشعب بتخفيف آلامه وتحديد آماله وتقوية إيمانه " ... ورغم التفاوت في الرؤية وصلابة الموقف من شاعر لآخر فقد ظلّ الإسلام الدرع الحصين لحماية مسيرة الشعب الجزائري عبر الأجيال والآن التي عاشها الشعب الجزائري"².

البعد الديني الوطني في القصيدة الشعبية :

إنّ طبيعة المجتمع الجزائري جعلت المعاني الدينية متجلية في نصوص الأدباء والشعراء لكثير من الاعتبارات التاريخية و الحضارية ، إذ زادت الأزمات تمسكا رغم ما قام به الاستعمار بكل ما أوتي من أساليب جهنمية على رأسها طمس الهوية الجزائرية فكان الدين سداً منيعاً ، وكان للشعراء دور كبير باعتبار جملهم نخلوا من الزوايا والكتاتيب انطلاقاً من رائد النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس :

شعب	الجزائر	مسلم	والى	العروبة	ينتسب
من قال	حاد	عن أصله	أو قال	مات	فقد كذب
يا	نشىء	أنت	وبك	الصباح	قد اقترب

¹ - أ. د. سالم علوي ، أصالة الشعر الشعبي ، أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية ، الأغواط ، من 17 إلى 21 نوفمبر 1999 ، ص 26 .

² - التلي بن الشيخ ، دراسات في الأدب الشعبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1983 ، الجزائر ، ص 221 .

ليواصل الجزائريون رفضهم لمحاولات الطمس، فقاوموا بشدة أطماع الاستعمار عبر التاريخ متصددين له بالسلاح و الكلمة متمسكين بدينهم و هويتهم المتجذرة عبر ربوع الوطن، لقول الشاعر الشعبي¹:

يا ناس انصروا الدين و موتو بالمائة و الألفين
بركة² من موت الشين³ على الشهوة⁶ والدنيا الاثنين⁷
يا نجعي⁴ النفخات⁵ الأبطال ابدوا الزدومات⁸

وجل قصائد الشعر الشعبي دوّنت عبر العصور واختلاف الأماكن عبر التراب الوطني - عربي وأمازيغي - تبين تمسك الشعب الجزائري بدينه. وخير دليل انتشار الزوايا والكتاتيب في كل جهات الوطن حيث نجد الشاعر يبدأ قصيدته بالإيحاء من النصوص الدينية وينهيها به . " لم يكتف الأديب الشعبي برواية الماضي ، ورصد وقائع الحاضر وإنما كان أبعد نظرا و أعمق تصورا بأهداف الغزو البعيدة ، فربط بين الحدث والحديث واستخلص النتيجة مما كان يجري حوله من أحداث وقد أدرك أنّ خطة الاحتلال الفرنسي تستهدف الجزائر شبرا شبرا ، وقرية بعد قرية و قد عبر عن هذه الرؤية في أرجوزة يحث فيها المواطنين على حفظ سلاحهم ، والاستعداد لمعركة ضارية سوف يكون ميدانها كل دوار لقول الشاعر :

امسح زنادك وخييه و اربط عليه جرد الغرارة
لقنا يجيو لفرنسيس ويصبح في كل دوار غارة

رغم محاولات الاستعمار بطمس اللغة العربية و نشر اللغة الفرنسية و محاربة التراث بكل الإمكانيات ، إلا أن الأدب الشعبي هو لسان العامة الذي وقف بالمرصاد عبر التاريخ⁹ ، ويذكر عبدالله ركيبي عند دراسته للأدب الشعبي " وفي كل هذه القصائد المختلفة الموضوعات نجد أثر الدين واضحا قويا ، وهي سمة بارزة في هذا الشعر فقد يبدأ الشاعر بالدين، و ينتهي به أو يصلي على الرسول : أو يستنجد برجال الطرق الصوفية بل نجد أثر الدين حتى في الغزل الذي استنفذ جانبا كبيرا من الشعر الجزائري الملحون البدوي والحضري على السواء ."¹⁰

¹ - التلي بن الشيخ ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) ، الشركة الوطنية للنشر الجزائر 1983، ص183.

² - بركانة : يكفيننا.

³ - الشين: الذل.

⁴ - نجعي : أهلي.

⁵ - النفخات: أهل العزة.

⁶ - الشهوة : حب النفس.

⁷ - الاثنين : الاثنين يقصد بها المال والرغبات.

⁸ - الزدومات: يزدم :الهجومات.

⁹ - التلي بن الشيخ ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) ، المرجع نفسه ، ص94 ، 95.

¹⁰ - عبدالله ركيبي ، الشعر الديني الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط1، الجزائر ، 1981 ، ص377-378.

والظاهر أنّ جل الشعراء استلهموا من القرآن الكريم من أسلوب وقصص وضرب أمثال فكان نعم المعين نصحا و أسلوبا و تبركا لفضل القرآن الكريم وأحاديث الرسول : تكاد لا تخلو قصيدة من ذلك ، لقول الشاعر أحمد بن الحرمة¹:

طلبتك يا الله بالقرآن	بحرمة الستين اللي في سوارو
لا تحرقنا بصهد النيران	بجاه محمد و العشرة انصارو
بسم الله والفتيحة	بحرمة البقرة ذنبي يتمحى
بآل عمران واللي يوحى	بالنساء داوي قلبي من جراحو

وهكذا يواصل الشاعر نظم قصيده في أصعب الظروف إذ لم تكن لا مدارس ولا جامعات ،إنما العدد المحدود للزوايا و الكتاتيب ، التي كان لها وللشعراء الفضل الكبير في نشر التعليم والثقافة والتراث عموما ، وخاصة عن طريق الشعر الشعبي لسان الشعب الجزائري المنتشر في قرى و أرياف و شعاب ووديان الجزائر ، فيذكر الشاعر كل سور القرآن الكريم بحسب ترتيبها في المصحف الشريف ، يواصل قوله:

بالمائدة و سورة الانعام	يا الهي داوي قلبي من الأسقام
اهدينا لصلاح القدم	توب عنا كل اللي حجو وزاروا
ألطف بينا بحرمة الأعراف	بجاه الأنفال نهار نموت ما نخاف
التوبة زيد قلبي تنظاف	بجاه يونس من القرعة ³ اختارو
نتوسل ليك برهما ²	تغشنا بالرسول أبي فاطيمه

ويعد هذا الاتجاه للقصيدة الدينية من أهم مراحل تطورها ابتداء من الثلاثينات ليتحول شكلها ومضمونها إلى صبغة سياسية من خلال استخدام الشاعر ألفاظ وإجاءات واقتباسات وشواهد توقظ شباب القرآن يقول الشاعر عبدالكريم العقون سنة 1947:⁴

يا رسول الإله أمتك العر	باء أضحت تساق كالأغنام
يا رسول الله كم ذا يلاقى	بعدك المسلمون من آلام
قد غدوا في يد العدو سلاحا	ليذود العدى به و يحامي

¹ - أحمد قنشوبة ، البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، دار سنجاق الدين للكتاب ، الجزائر ، 2009 ص 545.

² - برهما : سورة الحجر لقوله تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ الآية 2.

³ - القرعة : اليقطين الذي دخل في جوفه النبي يونس.

⁴ - خرفي صالح ، الشعر الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، د ت ، ص 119 نقلا عن ، الوناس تطور الشعر الجزائري ، 1945-1980، ص30،29.

ويثني عليه محمد جريدي سنة (1951):

ألا يا رسول الله هل قبس به
تقشع عن آفاقنا ظلم الخطب
فقدنا حياة المجد والشرف الذي
تحلى به السلام في زمن الصحب

ومن هنا نجد أن الشعر الشعبي كان أكثر تأثيراً وأوسع رقعة لكثير من العوامل التي رسخها الاستعمار من أمية وجهل و فقر، إذ نجد قلة قليلة من المتعلمين وغالبية ساحقة في البوادي والمناطق القاحلة وهنا نبدأ البحث عن الجانب التناسي لهؤلاء الشعراء حيث تتقاطع قصائدهم مع نصوص معجزة بمرتبة ثانية بعد القرآن الكريم استحضره في نصه الشعري ، مدخلاً عليه تجربته سنده في ذلك ثقافته وموروثه الشعبي مما جعل من القصائد نقطة تشابك لكثير من النصوص المقدسة ، وهذا على أتم وعي بما جاءت به الرسالة المحمدية ، مستمداً من ذاكرته فوجد الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم الهاملي صاحب المكانة الرفيعة والقلعة المنيعة إلى اليوم ، يقول في قصيدة تزيد عن الخمسين بيتاً¹:

صلاتك ربي والسلام على النبي
صلاة بها يشفى قلبي من الضر
و يا بارئ اتحنني بخفائك
حناس و وسواس نفسي

...

فيرضاك الاله لارشاد الخلق بسطوة المقادير و جليه القهر
فيكرمك القهار بخلع العاذ وتلاشي الحجاب عن ام الكتاب

يواصل دعاءه ورجاءه من العلي القدير بأسمائه الحسنی في نفس القصيدة :

وتطرد كل هم والبؤس مع الفقر
ووصلو عدو وحرزا من الضر
واغفر يا غفار لجامع ذالنظم
سلیل ذي الأنوار أبو القاسم نسب
محمد يا حضاار ابن أبي القاسم
الهامل في الأقطار بلادي ومسكني
واغفر للمختار وبن عزوز البرجي
و السند الأخيار و جميع اخواني

¹ - المیلود قویسم ،المجموع في نبذة من شعر المنطقة والمسموع ، ج 1 ، مخطوط ، ص 04 .

دور القصيدة الشعبية في تدوين الأحداث :

لعب الشعر الشعبي دورًا هامًا في تاريخ الجزائر إذ يمثل " مادة ثقافية على جانب كبير من الأهمية من حيث الدلالة التاريخية ، فهو ينزع إلى التسجيل الدقيق للأحداث وتحديد المواقع ، وذكر جميع الملابسات المتعلقة بالحوادث التاريخية ، لقد لعب الشاعر الشعبي خلال الفترة الاستعمارية دور المؤرخ الذي كان يسجل الوقائع بشيء من التفصيل وخاصة تلك الوقائع المحلية المعينة من الشاعر بأسماء الأماكن والرجال فيها والزمن الذي حدثت فيه"¹.

فكانت القصيدة الشعبية وثيقة تاريخية هامة تعكس الكثير من جوانب الحياة طيلة الحقبة الاستعمارية بجميع مظاهر الحياة المرة ، والثورة التحريرية الكبرى مخلدة بطولات وأجداد الشعب الذي تصدى لكل المحاولات ورفض كل الإغراءات عبر جميع ربوع الوطن. إذ استطاع الشاعر الشعبي تسجيل الكثير، في الوقت الذي عجز الكتاب على التدوين.

وقد استمر الشاعر الشعبي معبرًا ومتواصلًا مع أكبر شرائح المجتمع إلى اليوم من خلال مشاركته بصورة فعالة في الاحتفالات والأعياد الوطنية والدينية ففرض وجوده " وقد كان للشعر الشعبي الجزائري أهميته التاريخية قبل ظاهرة الاستعمار الفرنسي..... منذ العهد التركي مثل قصيدة سعيد بن عبد الله المنداسي وقصائد سيدي لخضر بن خلوف حول واقعة مزغران"² ، فالشعر في أبعاده يعكس الأدب الذي يهتم ويتجه إلى العامي أكثر من التاريخ " وهو بذلك يؤكد الخاص والفردى والفرق بينهما ليس في أنّ الأول يكتب موزونًا والثاني منشورًا ، لأنّ التاريخ يمكن أن يكتب على صيغة نظم كما هو الشأن في أعمال المؤرخ هيرودوت"³ والدليل تدوين الشاعر للأحداث التاريخية منذ القدم ، نجد الشاعر سيدي لخضر بن خلوف المتوفي حوالي (1613) قال :

يا فارس من ثم جيت اليوم	عيد أخبار الصبح معلومة
يا عجلان ريّض الملجوم	رايت اجنود الشوم ملمومة
يا سايلني عن طراد الروم	قصة مزغران معلومة
يا سيلني كيف ذا القصة	بين النصراني وخير الدين
اجتمعوا في برهم الأقصى	بجيش قوي جاوا معتمدين
ترى سفون الروم محترسة	صبحوا في المرسى أعداء الدين

" قصيدة من حوالي 118 بيتًا، يدون من خلالها المعركة الضارية دخول قوات العدو الإسباني قلعة مزغران وحطمت أبوابها الضخمة الأثرية ، قبل وصول الجيش الجزائري ، كان ذلك يوم: 22 أوت 1558 حيث اشتدت المعركة مع جميع الأهالي حقق فيها الجيش الجزائري انتصارًا عظيمًا وكبد العدو خسائر بشرية ومادية كبيرة، ولقنه درسًا ، كلها ذكرها الشاعر في

¹ - عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية/التاريخ والقضايا والتجليات؟ دار أسامة، 2006، ص129.

² - المرجع نفسه ، ص130.

³ - حسين خمرى ، الطاهرة الشعرية العربية / الحضور والغياب ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001 ، ص 82 .

قصيدته التي صارت وثيقة تاريخية هامة جداً كان ذلك يوم 24 أوت 1558¹. فالشاعر الشعبي هنا لا يختلف عن شعراء العصور السابقة في تدوين المعارك وتسجيل الانتصارات و تصوير الأحداث وهو الحال نفسه في جميع أرجاء الوطن عبر الزمن.

فالقصيدية هي البوتقة التي تنصهر فيها جميع الحسابات وتجتمع فيها جميع الدلالات من أحداث ومواقع وشخصيات تاريخية جديدة ، بطلها المجتمع ومخرجها يصب فيها همومه ومستجدات محيطه ، فيقدمها من خلال نصه وفق فنيات ورموز جمالية ودلالية، تظهرها لغته وآليات تحكمه في توظيف الإيحاءات والرموز ، مدرّكاً قراءة التاريخ لها من مختلف الأوجه ، " فالأحداث والشخصيات التاريخية ، ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى، فدلالة البطولة في قائد معين أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة باقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة ، وهي في الوقت نفسه قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة"².

لهذا فالشاعر يحاول الاستناد على التاريخ والتناص مع أحداثه وشخصياته واستثمار تلك الرواسب عبر مرمزة أو حكايات متراكمة ، يجد من خلالها منفذا إلى الحاضر الذي هو تجلياً للماضي وفق سياق خفي يجمع بين الغائب و الحاضر، فهو لا يتناص مع التاريخ " بهدف الاستعاضة عن الحاضر بالماضي، وإنما بهدف تحويل الجوانب التراثية المتألّفة بطبيعتها إلى أطر فنية رمزية تتيح للشاعر أن يتعمق في الحاضر وأن يجذّر رؤاه الشعرية للواقع والحياة والوجود"³.

كما نجد الشاعر بن قيطون صاحب رائعة حيزية ، والذي لم يتوقف عندها رغم أنها شغلت المتلقين عنده ، إلا أنه ترك تراثاً رائعاً من مدائح دينية ومرثي نذكر تسجيله للحادثة التاريخية المتمثلة في مقاومة سكان المنطقة للاستعمار، ومعاناتهم للقتل والتشريد والنفي، وتسجيل مكانتهم كشهداء جاهدوا بكل فخر و اعتزاز فيحول الحزن والألم وشدة المعاناة إلى أمل متجدّد من خلال القصيدة التي دونت مقاومة قبيلته البوازيد يقول:⁴

الأحباب	يا	لحباب	نجعى نجعى	وين قالوا غاب
فرقوه	عن	الأشعاب	ما أشين	خيران جاعلى وذني
كي	طاح	محمد	والسرسور	عليه متاعد
مجروح	و	يكمد	متأثر	بجراح دخلاي
ماجاش	بن	عياش	راعي	الاشهب يا بني رياش
زدمو	و	ماولاش	رجع	السرسور ظهراي
يا	راعي	الصبار	ثاني	ثاني عيدي
نا	راه	قبي	عن خوتي	لبطال بعدوني

¹ - لخضر بن خلوف ، ديوان ، ص168.

² - علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة ، 1997 ، ص 12.

³ - خديجة المغنح ، استلهام التراث في شعر عبدالعزيز المقالح ، وزارة الثقافة ، صنعاء ، 2004 ، ص 139.

⁴ - ابن قيطون محمد ، مخطوط ، جمع أحمد سعدون .

طيره	برية	راحوا و ما ولاوش للي
ما	جاوش معايا	صيوده قهروا العدواني
صدو	فتوت أكبار	راحو ما بقاوش الدوار
دواوهم	كفار	شمت بيهم ذا النصراني
كانو	مجمولين	احصن وفراسات مبحوطيني
عادومسجونين		في حبس أن لا شافتو عيني
نبكي	نظل نوح	بي خوتي غرامهم مريوح
ما	صبت وين نروح	ثارت في قاع لمخاني
نبكي	على خوتي	للي ما و لاوش لبيتي
خلاوني	ميت	و مغير باجراح دخلاي
كي	جاوا من عندهم	قالوا الأشراف ما بيهم
شاهي	نظل عليهم	أهل الجهاد و الميداني
أبطال	في شهرة	و انحقق فيهم باعاني
يا	خالق البحور	رد النجع اللي اغداس شور
عني	لا بلاش بدور	عني لا بلاش بدور
كي	جاو من ظهرة	و يريح نجعي في الصحرا
وخيول	في شهرة	ركبوهم شبان عجبوني
قيطان	من وردي	و برانيس رفاق و جريدي
و	محازم تقدي	من ذهب الغاية اللي يقني
يا	رافع السما	جمعهم كما اجمعت الما
يا	باسط النعمة	ابسط عنهم كل ما يعني
باسمك	القدوس	ارفعهم كما ارفعت ادريس
في	جنة الفردوس	واجعلهم في ذاك لواني
يا	خالق الأمة	اجمعهم كما اجمعت الما
يا	باسط النعمة	جيب لهم أمير حقاني
ان	شاء الله يسعد	للي جاب القول فيه يقد
سماه	محمد	في النسبة معروف قيطوني
معشوق	بالنية	مالي لا مال لا دنيا
بيا	للي بي	خوتي خوتي حبهم بي

فالشاعر يخاطب أهله وأحبابه فيظهر الآلام والأحزان التي ألمت بهم، ووصف لنتائج المعركة من جرحى جسدًا ونفسيًا ويرفع بحمة القائد والبطل بن عياش، و أبطال المعركة كأنهم طيور بريّة، وما قام به المستعمر من قتل وتشريد ونفي... ثم يرفع من معنويات القوم متحدًا الاستعمار - الكفرة - بالصمود ويثبت ذلك بتمجيد الأبطال بوصفهم ووصف خيولهم وتجهيزاتهم (محازم تقدي ، سيوفهم سم قاطع ثعبان ...). ثم يضيف الجو الحماسي بالدعاء لهم راجيا من الله العليّ القدير بأسمائه الحسنی. (يا خالق البحور يا رافع السما، كما جمعت الماء بجورًا ومحيطات، وجعلت منه كل شيء حيًا، يا باسط النعمة، باسمك القدوس، جنة الفردوس، خالق الأمة ، ...) فيرفع معنويات المجاهدين من خلال إظهارهم أنهم أصحاب حق يدافعون عن وطنهم، شهداء عند ربهم مقامهم جنة الفردوس، بذلك يعلن أنهم خسروا معركة ولم يخسروا الحرب وأن الله يجمعهم بعد شتات ويزيدهم قوة، (كالماء، البحر، ادريس،) ورفعة كما رفع الله نبيه إدريس عليه السلام لقوله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾¹.

" إنه وصف مجمل للمقاومة البطولية متجلية في حالات فردية يذكرها الشاعر و كأنه شعر بمهمته في كتابة تاريخ منطقتة وأهله لأن مؤسسة الاستعمار سوف تسجل هذه الواقعة التاريخية من منظورها، أما هو فما عليه سوى أن يستعمل الجماليات الشعرية لتصوير هذه اللحظة من حياة الجماعة التي ينتمي إليها"².

فالشاعر دائم التناس مع موروته التاريخي البطولي والديني والثقافي ، مما يدل على ثراء مخزونه اللفظي والدلالي في الوصف والرمز والإيحاء ، نلمس هذا من خلال وصف الحالة النفسية وهيئة المتلقي ، ورفع معنويات الجند والأبطال وتوظيف ألفاظ قوية من الموروث المختلف المنابع ، كأسماء الله الحسنی ، ومكانة الشهداء، ونهاية الأعداء -الكفار - والإصرار على أحقية النصر المبين فيذكر رفعتهم لا محالة بذكر نبي الله إدريس عليه السلام حين رفعه الله مكان عليا " تضمنت لغة القصائد الملحونة ذات النزعة الدينية ألفاظا تعكس الموروث الديني والتاريخي والثقافي للأمة الإسلامية، ونلمس هذا من خلال أسماء الأنبياء والمرسلين وما جرى لهم والعبر من قصصهم وشخصيات تاريخية ودينية لها تأثيرها الروحي في المسلمين عبر التاريخ الإسلامي وتوظيف معاني القرآن الكريم لإثراء تجارب شعراء الملحون بالرموز الدينية وبعض الأحداث التي وقعت وشكلت مسارًا في التاريخ الإسلامي"³.

يظهر الشاعر موروته الثقافي المتجذر في أعماقه، معبرًا عما ألمّ به من حزن وألم لما أصاب قومه ، وهي نزعة دينية في العرق والوطن ، وهو ما جاءت به الشريعة الإسلامية التي تمثل المؤمنين كالجسد الواحد، وما حث عليه القرآن الكريم والدفاع عن الوطن والدين والعرض ومكانة الشهداء عند الله.

¹ - سورة مريم ، الآية 56 ، 57 .

² - عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص132.

³ - عبد القادر فيطس، الشعر الملحون الديني الجزائري/ قضايا الموضوعية وظواهره النفسية، دار سحنون، ج2، 2008، ص148.

كلها منابع نخل منها الشاعر ، حاله في ذلك حال الكثير من الشعراء عبر ربوع الوطن منذ قرون مثلما ذكرنا آنفا سيدي لخضر بن خلوف منذ نهاية القرن السادس عشر ، وغيرهما من قاوموا الاستعمار بسلاح الكلمة وشحذوا همم الرجال والمجاهدين الأبطال ودونوا معاركهم وإلى اليوم ، وكل شاعر يحدث تناسا رائعا بطريقته وبفنياته وقدراته .

ومع ضعف الثقافة العربية في الجزائر ابتداء من عهد الخلافة العثمانية فإنّ الاستعمار الفرنسي عمل على طمسها ، إلا أنّ الدين الإسلامي ظل يجري في عروق الجزائريين محفزا ومحافظا على هويتهم ووحدتهم في مقاومة الاستعمار فكان للأدب الشعبي دور كبير في الحفاظ على عروبة الجزائر، رغم كل القوانين الفرنسية الجائرة فازداد اهتمام المنظمات الثقافية والسياسية والعلماء والأدباء القدامى بعادات الشعب فاعتمدوا الأساطير والخرافات والأحداث التاريخية ، فعمت المقاومات أرجاء الوطن وتجند الشعراء في تصوير ملامح فترة الاستعمار الفرنسي بتوضيح جوانب الحياة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتدوين هزيمة الجزائريين رغم مقاومتهم ، ثم استمر في تسجيل رفضهم ودفاعهم بكل بسالة عن وطنهم عبر ربوعه ، فانتشرت القصائد وأخذ الشعراء ينهلون من تراثهم .

يقول الشاعر ابن عبد الله معددا القبائل وكأنّه يدفع بها نحو الاهتمام برسالته، ودعوته إلى توحيد الصف والتذكير بالمصير المشترك¹.

لو نحكي عالي طرى ² وصار	غزوات كثيرة ما نطيق نحسب
عد الحضنة ³ ونجوعها الغوار ⁴	وجبال عمور و زيدا المرقب
عد الواد الكبير وعد ثاني زكار ⁵	عد سيدي الشيخ مع أولاد لاشهب
عد أفليته وعد سويد الأحرار ⁶	وشلف ومتيجة وروح غرب
سيدي ابراهيم فنان فيه الأعمار	وغزوة شقرانه ⁷ محايها تشيب

على الدين الشجعان هانت أرقاب

ياسرهما عيطه نجوع نصرو الأعلام	هانو الأعمار و جددو العهد
أفليته مشهورين و الحشم الكرام	مناصر وبني حجة صور واحد

¹ - التلي بن الشيخ ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة ، مرجع سابق ، ص131.بتصرف.

² - طرى : احكي ما حدث.

³ - الحضنة : مسيلة، بوسعادة...

⁴ - لغوار: المغاوير. / - المرقب :سلسلة جبلية بولاية الجلفة .

⁵ - زكار: منطقة أثرية جنوب ولاية الجلفة.

⁶ - سويد الأحرار: قبيلة بمعسكر، شلف، واد كبير (بشلف حاليا).

⁷ - شقرانه : قبيلة بجبال هواره. / - هانت أرقاب : من أجل الدفاع عن الوطن رخواست الأنفس.

ونجد معالم التناس من خلال تشابك وتقاطع النصوص مع بعضها إذ نجد الشاعر ينتقل من جهة إلى أخرى وللوطن من جنوبه إلى شماله ، ويذكر ما يدل على سعة إطلاعه ومتابعته للأحداث زمانيا ومكانيا وهو يحمل هموم وطنه وإخوانه من كل جهة بكل وحدة صف معبرا عن ألمه وحزنه مثلما رأينا عند الشاعر ابن قيطون في حادثة تشتت قبيلة البوازيد ، فيذكر حالته ووطنه (لونحكي، طرى ، غزوة ، غزوات مانطيق نحسب كلمة عد تدل عن الكثرة وهول الشيء، نجوع،... الغوار الشجعان فئات لعمار محايينها تشيا ياسر نجوع نصرو الأعلام) ثم يذكر الأماكن وكأنها خارطة للوطن شملت المقاومة والتصدي للعدو، (الحضنة وتشمل أماكن شاسعة ، أولاد سيدي الشيخ الشلف والأراضي المنخفضة ، معسكر...) ثم يذكر بافتخار المغاوير أبناء الوطن وهم الأحرار كثيرون قاوموا الكفار ونصرو الإسلام ليختمها بقوله:

ياسرهما عيطه نجوع نصرو الأعلام هانو الأعمار وجددو العهد
أفليته مشهورين و الحشم الكرام مناصر وبني حجة صور واجد

ورغم التباعد بين الشعراء الشعبيين زمانا ومكانا إلا أنّ التواصل مستمر بينهم من خلال تقاطع النصوص، فهو تناس نابع من تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الحاضر، فيظهر انسجامه مع التجربة الإبداعية للشاعر، مما أضفى على الشاعر ثراء معرفيًا ، ليؤرخ للأحداث في سياق شعري ، مما يحدث تمازجًا وتداخلًا بين عامل الزمن فيظهر الماضي بإشاراته وأحداثه على الحاضر، مما ساعد على تقديم إمكانات وطاقات إبداعية للشاعر، جعله ينهل من مخزونه الناتج عن اطلاعه ومسايرته الأحداث وثقافته الناتجة عن جموع المتلقين ، وذلك بفضل تفاعل النص الشعري مع النصوص التاريخية ، دون حدود مكانية أو زمانية على أن الوطن واحد.

إنّ أهم فوائد التاريخ استخلاص الدروس والعبر التي تفيد الأمة في حاضرها ومستقبلها فمعرفة الماضي تساهم في صناعة المستقبل وتوجيه الجهود إلى الغاية ، فهذه الشاعر يبرهن على تتبعه لحال وطنه وأمته ، فيمجد الانتصارات ويتألم عند الهزائم يقول المجاهد دريسي البشير:¹

يا ربي يا خالقي بينا تلطف ووصلنا يا خالقي إلى الأمال
بجاه الرسول طه مشرف محمد خلاصنا يوم الحصال
سجل يا تاريخ في قلب الصحف اشهد يا زمان ما قمنا بأعمال
قمنا بالكفاح من أجل الهدف ضحينا بنفوسنا زدنا بالماليا
واعطينا العهود للي راح سلف و امضينا باليد انطقنا الأقوال
هذا عهدي ليك يميني نخلف عهد الشهداء الأحرار الأبطال
يا رب العباد وحد هذا الصف تتحد رجالنا قبل الأجال

¹ - أحمد قنشوبة ، الشعر الغض اقتربات من عالم الشعر الشعبي ، منشورات رابطة الأدب الشعبي ، 2002، ص 70.

يصبح الاستعمار مهزوم مكتف ويولي محفور اذنا ابو الأردال

" نجد الشاعر يتكىء لأحيانا على الخلفية الثقافية والمفاهيم المشتركة بينه وبين المتلقي ، من خلال استخدامه للألفاظ ، والإيحاءات العقيدية وغيرها ¹ ، فيظهر ذلك من خلال توظيف الشاعر لكثير من الألفاظ والتراكيب والإيحاءات المستمدة من نصوص أخرى. فالشاعر يتوسل بالرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم الجهاد لتحقيق النصر وطرده الاستعمار مقابل تضحيات جسام وشهداء عظام مذكرا بتسجيل الأعمال البطولية ورسالة الشهداء والعهد فيذكر كدلالة على ذلك (بالمعنى ، فتتحد رجالنا قبل الآجال بجاه الرسول ، خلصنا ، الكفاح ، العهود عهد الشهداء....) وكأنها إشارة للأوضاع السياسية التي عرفتها الثورة أثناء مخاضها كثير من التشابكات والتقاطعات النصية مع الماضي والتراث الديني والتاريخي لما لهما من تأثير في نفسية المتلقي فيظهر مدى تمفصل التناص التاريخي المختزل كوسيلة لقراءة الآخر وتفكيك دلالاته ، فاستحضار الشاعر " شخصيات تاريخية قادرة بما ارتبط بها من دلالات أن تضئ التجربة المعاصرة وإنطاقها نيابة عن الشاعر المعاصر لتعبر عن الموقف يرى أن يقدمه للمتلقين ² .

القصيدة الشعبية وثيقة تاريخية :

كلما استنطقنا قصيدة إلا ووجدنا أن الشعر الشعبي واكب جميع مراحل المقاومة وخلد مآثرها ، في الوقت الذي عجز فيه الأرشيف ، حلت القصيدة الشعبية محله كوثيقة تاريخية باعتباره من الوسائل التعبيرية المجسدة للثقافة الشعبية طيلة فترة الاستعمار وظلام الأمية فلم يكن هناك بديل سوى الشعر الشعبي، الذي صار مصدراً هاماً اعتمد عليه الباحثون . يقول الشاعر المجاهد المرحوم يحيى بختي من الحلقة ³ :

يا ربّي يا خالقي طف ذاهول	حشمتك بجاه طه العدناني
ماذا من أسود في السجن المقفول	خوتي من ذا الهم قلمي نواني
من ذا اللفعة سمها واعر قتل	من تبعها راه فعلو شيطاني
ما عندوش النيف في فعلو مذلول	ما يدخل في دين طه المداني
ما يعرف الذل من قلب منقول	مسبل لله والنبي ثاني
رب كم أسود أولاد الأصول	ما يدخل ذلا ل معاهم ثاني

استخدم الشاعر الكثير من الألفاظ بحسب توظيفها دلاليا منها ما يدل عن غضبه ووصفه للاستعمار وأذنا به وأفعاله المشينة (هول، سجن، لفعة، شيطان، ما عندوش النيف، مذلول، الكفرة، عديان الرسول :) بالمقابل يحشد ألفاظاً وصفات

¹ - نفس المرجع ، السابق، ص 70.

² - سامح رواشدة ، القناع في الشعر العربي الحديث، مطبعة كنعان، الأردن، ط1، 1995، ص7.

³ - يحيى بختي ، المسيرة ، ديوان الشاعر ، جمع عبد الرزاق بختي ، منشورات وزارة الثقافة، ط1، 2006، ص 126.

لعظمة الثورة (حشمتك بجاه طه : ،أسود ،مسلمين...) فالشاعر لا يختلف عن سابقه في التوسل بالرسول : ووصف العدو وأتباعه وإظهار قيمة الشهداء والمجاهدين الأخيار والإيمان بالقضية العادلة.

فتظهر ثقافة الشاعر التراثية الدينية والعربية ، مستخدماً الإيحاء بما يجب أن يوصف به العدو ، فاستحضار الشخصيات ذات القيم التاريخية والتي هي كمرجعية تداولية دينيا وثقافيا وتاريخيا ، يعطي النص المزيد من الدعم و المصادقية والتأثير، باعتبارها جسور تستقطب المتلقين ، خاصة إذا ما كانت معروفة بقوتها والوثوق في مواقفها وبطولاتها يضيفي عليه مصادقية لمروياتها الممثلة في القصيدة.

فالملتقي " وهو خالي الوفاض ، وإنما يستعين بتجاربه السابقة بمعنى أنه لا يواجهه وهو خالي الذهن فالمعروف أن معالجته للنص المعالج تعتمد - من ضمن ما تعتمد - على تراكم لديه من معارف سابقة تجمعت لديه كقارئ متمرس قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص والتجارب السابقة له وقراءتها ومعالجتها"¹.

يواصل الشاعر المجاهد المرحوم يحيى بختي مسجلا ما قامت به فرنسا من أعمال وحشية حين بعثت بأكبر السفاحين من جنرالات ، فيذكرهم مثلما دونهم الأرشيف²:

يا دي قول لعبت قداش ان مرة	في ذا المرة طحت قدام الشجعان
لولا هو ما رحت في ذيك الفترة	اتفكر يوم تلير ³ في شاو الزمان
قيمولي و لاكوست كانوا سهارى	لكن ما فعلوش فعلوا ذالجبان
سالوا لونسريس وجبال الصحراء	من لي جا دي قول رجعها بركان
بالغازات السامة وأفعال أخرى	نهب وسلب نسا ومعاهم صبيان

فها هو يحمل الأحداث والشخصيات دلالات عميقة و جديدة ، أساسها موقف الشاعر وهو واجسه المنبثقة من إطلاعه وثقافته وتداخل وتشابك وتقاطع النص مع نصوص سابقة ، إذ كان الاستعمار يذكر الحملة التي قام بها ديغول ، والإنزال العسكري وقيوده السفاحين إذاعيا و صحفيا، ودعائيا من أجل إرهاب الجزائريين في المدن والقرى والمداشر والأرياف... فالقصيدة وثيقة تاريخية دون من خلالها الشاعر بحكم حنكته وخبرته ووعيه حيث كان في التنظيم الكشفي قبل الثورة متشبع بالثقافة العربية الإسلامية وحب الوطن متألم لواقع شعبه ، فهو يتناص مع التاريخ سياسيا وعسكريا فيذكر الكثير من الشخصيات والقادة والأماكن والأسلحة مثل: (القادة السفاحين ، قيمولي ، لاكوست ، هتلر ، فعلوا ذالجبان، ديغول، غازات سامة ، نهب سلب ، سي ، ...). ويقابلها بما يرفع المعنويات ويدل على التحدي عبر أرجاء الوطن ولم يقتصر على المنطقة السهبية (سالوا لونسريس وهران ، المنطقة السادسة تلمسان ، جبال الصحراء ،.....). فالنص يمتد

¹ - محمد خطابي ، لسانيات النص/ مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 ، 1991، ص 61 .

² - يحيى بختي ، المسيرة ، مرجع سابق ، ص 68.

³ - تلير : هتلر .

ليشمل الوطن، والتاريخ، وكل أفعال المستعمر وقادته، ليدل على ثقافة وإطلاع ووعي ووطنية الشاعر المعبر على لسان شعبه بكل تحدي. فيضيف الشاعر:

لولا الصديق انتاعنا شاو الثورة	ما يتكون جيش في روس الكيفان
القيادة ناس رها مذكورة	خلدهم تاريخ بطولة وإيمان
كالشيخ الحواس بطل الصحرى	هو و عميروش ماتوا في الميدان

ومن خلال اللغة المعبرة والصّور الموحية وتوظيفه للرموز الثورية والتاريخية، مبرزاً المعنويات العالية للشعب الجزائري فالشاعر يستخدم ضمير الجمع وهو واثق، فيذكر (القيادة، نتاعنا، خلدهم، ماتو...) كلها تظهر ثقافة الشاعر الواسعة. ثمّ ينتقل بكل تحدي وبنبرات حادة قوية استلهمها من تاريخه وإيمانه بقضيته، وموقف شعبه الراض من خلال المسيرات والمظاهرات، فيظهر التناص التاريخي من خلال الأفكار والأسماء والتقاطع مع النصوص التاريخية ليواصل قائلاً:

اسمع يا ديغول ذا راي الثورة	مانا محتاجينلك سلم الشجعان
انموث مواصلين المسيرة	هذا هو العهد رجال و نسوان
إذا اراهم قلطوك اجناس اخرى	تعرفنا من قبل خصال العريان

ولم يكتف بتحدي ديغول من خلال صياغة نظرة شعبية للثورة والأحداث العامة وأهم مراحلها منها مشروع ديغول الخطير، مخاض عسير فيذكر (المسيرة والعهد، رجال نسوان، خصال العريان...) إضافة إلى توظيف الشخصيات التاريخية سي الحواس، وسي عميروش،... وامتداد النص التاريخي للعروبة وأجنادها، فهو يسجل الأحداث بكل دراية وتمرس. ويقول أيضاً في قصيدة أخرى¹:

تشهد الجبال كانت قلعنا	ما خفناش من شار ولا دبابات
بأنواع السلاح كامل ضربونا	أسلحة مختلفة والطائرات

.....

اقتلنا المئات من جيش عدونا	في مناعة كم خلينا جثات
يا سامع هذا الكلام اتصدقنا	مازدنا ولا نقصنا هاك اصرات
تبقى في التاريخ و اترحم عنا	واحنا موجودين وبعد الممات

¹ - يحي بختي، ديوان، مرجع سابق، ص 56.

يستفيد الشاعر من التاريخ فيستلهم منه ويعتز به، فوظف (خلف أبرار ، تاريخنا ، الفاتحين ، أصالتنا أثار، تابعين، جهاد، سبيل الله، جند المشركين، ثرنا، التحرر، حب الوطن، مجاهدين، ...) لها دلالتها وأبعادها ومنها تضمينات، ما يدل على الخلفية الثقافية للشاعر العربية الإسلامية عبر التاريخ كيف لا وهو الكشف المجاهد الشاعر الذي عمل على التسجيل الدقيق للأحداث " وليس من باب الافتراض القول بأن بعض الشعراء الشعبيين كانوا جنودًا في تلك الثورات، فعبروا عنها شعراً ، وشاركوا فيها جنودًا وحفظوها تاريخًا ونضالًا، ومن الانصاف للتاريخ القول بأن اللغة العربية التي طوقها الاستعمار بقوانين جائرة ، وإجراءات قاسية قد وجدت في الشعر الشعبي ملجأ وملاذًا ، فقد حافظ الشاعر الشعبي على ما بقى من لغة القرآن ، واعتبرها لغة مقدسة ولا يزال يحتفظ لها بهذه المكانة رغم تغيير الظروف وتغيير المفاهيم، ووصف اللغة بأنها عاجزة عن استيعاب الحاجات التكنولوجية المعاصرة"¹.

فالشاعر كما ذكرنا لم يقتصر دوره على فترة أو جهة معينة إنما الجميل نجده واقع وطني ، رغم صعوبة الظروف، وهيمنة الاستعمار وأذنا به الذين كانوا أشد مرارة، وكان الكثير منهم من ساهم في بقائه طويلاً ، أولئك الذين يمثلون النموذج السلي (الحركي و القومية.....) مثلما يسميه العربي دحو.

فالشعراء من خلال المرويات الشفاهية " اتخذوا من الكلمة سلاحا فكانت القصائد الشعبية عبارة عن وثائق تاريخية سجلت المعارك واتخذ الشعراء الكلمة سلاحا، فكانت قصائدهم تروى في الساحات العمومية في الأسواق"² هكذا تناقلت الأفكار، وانتشرت الأحداث والأخبار، وتلاقحت وتناصت نصوص الشعراء بالرسائل المشفرة التي لا يفكها ولا يتذوق سحرها إلا الجزائري الوطني الغيور.

يقول الشاعر بكلماته المدوية الغنية بالرمزية والعبارات الثورية لسرد أحداث يظهر فيها تأثره بفن البطولات والمغازي لموقف الشاعر بوكريرة³.

لا حونا في السجن عنا لا من سال	حتى المحبين عنا ما دارو
احنا من عرب اشنا نسمو فال	قاشينا محظي مدلال بشمارو
رانا مشنوعين من قوات الإيمان	سيرتنا فيها العلما حارو
ضرب الصحابة وحرية شطار	عنهم ما طاقوش وين ما دارو
الجبهة فاس ذكير و الكفرة فحار	كي يتكسر ما يكونش جبارو
دارو فيهم كي ما واسى حيدار	قداهن ملك كسار حمارو
مير الصحابة اللي فايث الأبرار	أهل الجماعة اللي يطيق لقي حارو
كتاب الغزوات فايث صار و صار	حرب اليوم صعيب تتعد خبارو

¹ - التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990 ، ص 44،45.

² أحمد الأمين ، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة ، 2007 ، ص 286.

³ - أحمد قنشوبة ، الشعر الغض ، مرجع سابق ، ص 73.

مما يبين أنّ الشاعر الشعبي تفرس ونهل من خزان أمته العربية الإسلامية الأمازيغية، ثم ساهم بفضل حنكته وذكائه في إيقاظ الهمم ، خاصة أنّه عرف الكثير من السير المتداولة، كانت بمثابة السبيل الأوحّد لتحقيق التواصل وتحرير الرسائل والعمل على انتشارها برمزية سهلة هادفة " تقوم المغازي بالتأليف بين عناصر خيالية وأخرى واقعية [...] أما العناصر الواقعية فتتمثل في إسقاط الرواة مضامين رواياتهم على الواقع المعاش لجمهورهم. فالمغازي تتحدث عن مواجهة تقع بين مسلمين وكفار، ومن المؤكّد أنّ جمهور المستمعين وهو يستمع إلى هذه المغازي يحدث عملية زحزحة للأحداث التاريخية فتصبح كأنّها تصوّر هي بنفسها واقعة ، وفي هذه الحالة يصبح هو امتداد لجيش المسلمين الأول. ويصبح مستعمر بلاده صورة متكررة لجيش الكفار"¹.

وقد انتشر الرواة عبر التراب الوطني فوجد الناس في حلقات المداحين متنفس ظلّ إلى اليوم نتيجة تنوع الموضوعات وما يوافق الظروف العامة ، كما نجد الشاعر طيباوي محمد بنيلي من الجلفة يوظف في قصيدته شخصيات تاريخية، ظلت مضرب الشجاعة والإقدام والبطولة والمكانة العالية ، تخيلها الشاعر والرسام والمتلقي كيف لا وهو الخليفة سيدنا علي -كرم الله وجهه ورضي الله عنه-:

جيش مظفر ناض دمر الاستعمار عقبه و طيور وأشبال ماها
تجبد قلب اللي يقشوه بالاطفار "ثرية حيدار"² ناضت لاعداها³

يصف الشاعر الجيش بالقوة والشجاعة والإقدام كأنهم طيور جارحة تقتلع قلوب المستعمر ،لأنه يرى فيهم أحفاد سيدنا علي -رضي الله عنه - وهنا المجاهدون وهم خلف السلف الصالح كأنّها ترمي العدو وتقضي عليه لعدالة قضيتها ومحاربة الظلم الذي وعد الله فيه بالنصر المبين ، وهكذا يوظف الشاعر التراث العربي الإسلامي من خلال الشخصيات والرموز فيتقاطع مع الأحداث ونصوص السير، فيظهر التناسل الديني من خلال الامتصاص سواء التاريخي من أحداث السير و قصص القرآن الكريم فيذكر (وطيور) إسقاط يذكر فيه المتلقي بسورة الفيل المعروفة لدى كل ناس "طير أبابيل" التي هزمت أصحاب الفيل ، وكأنّه يؤكد أن النصر المبين حليفهم فهو صراع بين الحق والباطل. والملاحظ أنّ الشاعر الشعبي اتجه إلى التركيز على الجوانب الدّينية والتاريخية والثقافية للمجتمع، إدراكا منه حقيقة نوايا الاستعمار والتي لم تعد خفية، في العمل بكل ما أوتي من أجل طمس الهوية العربية الإسلامية فظهر التناسل جليا في توظيف الشاعر للشخصيات الدّينية والتاريخية ، والإيحاءات التي من شأنها تربط الجزائري بدينه وهويته وهيئته للدفاع عليها . ليقول الشاعر المجاهد إدريس البشير:

يا رب العباد وحد هذا الصف تتحد رجالنا قبل الآجال
يصبح الاستعمار مهزوم مكتف و يولي محقور و أذنابو الأزال وسط

¹ - عبد الحميد بورايو ، البطل الملحمي والبطلة الضحية / في الأدب الشفوي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1998 ، ص 69.

² - ثرية حيدار : سلالة علي بن أبي طالب. (خير خلف لخير سلف).

³ - أحمد قنشوبة ، الشعر الغض ، مرجع سابق ، ص 75.

وسلكنا كما سلك منها يوسف
 في مصر باعوه مملوك منصف
 يا ربي بجاه صاحب الكهف
 يصبح العلام مبسوط يرفرف
 العجب و معاه خوتو و الأطفال
 و اشتراه أميرهم بريحيص المال
 زول عنا يا الخالق كل أخبار
 أخضر وأبيض وسطو نجمة وهلال¹

يظهر التناس في أجمل صورة انطلاقاً من التناس الديني في توظيف الشاعر من الدعاء والاستعانة بالله وحده ، وهي قاعدة كل مسلم، وأساس تحريك مشاعره ثم يوظف قصة سيدنا يوسف عليه السلام ويعطي أبعادها من معاناة إلى نصر مبين ، فلم يكتفي الشاعر بالاقتراس من القرآن الكريم بل أظهر ثقافته وإطلاعه وتوسع في ذكر جوانب أخرى ، ليجدد الأمل في نفسية المتلقين بأن النصر وجمع الشمل قريب لا محالة كما جمع الله سيدنا يوسف عليه السلام بإخوته ، وحفظ أصحاب الكهف رغم مكوثهم طويلاً ، فالشاعر يعلم مدى تأثير القصص القرآني الكريم وأحاديث الرسول: وما تحققه من وحدة للصف وهزيمة العدو. أما الشاعر محمد بلخير يقول:

سلاك المرهون من حبس الكفار
 قادر كل غريب لبلادو تديه

فرج يا ربي على من ضاقت بيه
 سلكني من ضيق لعدو والزيار
 سلكني ما بين سد و سد حجار
 سلكني ما بين لقراص ولشعار
 سلكني كما سلكت طه في الغار
 سلكني كما سلكت تميم الداري
 العبد أضعيف ما طاق للضرار
 الطيب للناس لي راه مرا
 حبس الغربة لا تخلي واحد فيه
 قادر تبني الريح و الكاف توطيه
 و تشوف المغبون لا كان بعينه
 العنكبوت مع حمام سدوا عليه
 بكري شاو زمان قصة صارت به
 هموم الحبس و زادهم العار عليه
 نشكي لخالقي و لا لغيره

وكان الشاعر يمتص كثيراً من نصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأمثال والحكم، يستهلها بالدعاء والرجاء من الله العليّ القدير، ويقرنه بصاحب الحق المظلوم من طرف الكفار الذين أمر الله بقتالهم في أكثر من آية في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وهو يعلم أنّ الله على كل شيء قدير، ثم يعتمد تكرار لفظ "سلكني" للتعبير عن شدة الضيق والألم والأمل ، وهو يؤكد قدرة الله ، فيوحي إلى كثير من القصص تبين عظمة الخالق خاصة القصص القرآني كيف نجا الله الأنبياء والرسل وكيف فتح ونصر المغبونين، ليصل إلى سيد المرسلين طه العربي : وهو في الغار مع سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين

¹ - أحمد قنشوبة ، الشعر الغض، مرجع سابق ، ص76.

نجاهما الله من بطش الكافرين، ويذكر نجاه الصحابي تميم الداري رضي الله عنه من التيهان في البحر ومن المسيح الدجال ، ثم يعترف بضعفه ويشكو ألمه لله وحده لا شريك له فامتلاك الشاعر ثقافة دينية مستمدة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول : و إطلاعه على كثير من القصص كونت لديه خلفية وخرانا عامر بالإيجاءات والألفاظ عمل على توظيفها، إذ نجد تناسبا نابعا من تداخل النصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي للقصيدة، مناسبة حققت انسجاما مع التجربة الإبداعية للشاعر فكان حضور التاريخ من خلال استلهم أحداث كالتي ذكرها مع الرسول : ومعطيات دلالية في السياق الشعري فانسكب الماضي بكل إشارات على الحاضر ، مما كون لدى الشاعر طاقات إبداعية.

أما الشاعر بن عيسى الهدار قويسم ينظم قصيدة في الموضوع ¹:

قلت نجيب أبيات والله يسهل	باسمك يا معين ذالكلمة تسهل
صل يا ربي أعلى خير الرسل	جد الحسنين واصحاب و اللال
عيد الثورة الخالدة عنا قبل	كل أمة تاريخها شاهد سجال
ذكريات الشعب بيها يحتفل	يوم أن شن الحرب ضد الاحتلال

وكأنّ الشعراء مولعون بتقليد بعضهم البعض، معتمدين على سماع الشعر والحكم والأمثال بإصغاء وتمعن وحسن إدراك مما يساعدهم على البراعة في سياق الكلام وتركيب المعاني، فيواصل قصيدته:

كذا من ثورا التاريخ مسجل	لنا ذكريات في كل الأجيال
قرن وثلاث القرن والشعب يناضل	اتعذبنا في الحروب اسنين طوال
عبد القادر حارب الجيش المحتل	دار معاهم حرب ما عندو مثال
بعدو ثورا بعد ثورا امراحل	و المستعمر كان دايما في تهوال
اللي سار مع الدرب لابد يوصل	و النتيجة نصر على كل حال
في الربعا وخمسين قمر الثورا هل	في نوفامبر عا د النيضال
المستعمر قال هذاشي ساهل	ما دارش با حسابنا في أول حال
جانب الجند اكثير باسلاح امدجل	طيارت أسراب صنع أعلى لشكال
مرتزة من أجنوس أبيض وأكل	ودار امعا اعاون غلطهم باقوال
بhzو ودزو عام في البر ايقبل	حس المدفع كانهو واقع زلزال
قلنالو قا جيب جند الحلف أكل	رانا مسعدين لكل احتمال
ثار الشعب اجمع كي وقفت راجل	والإيمان اسلاح و عم القتال

¹ - الميلود قويسم ، المجموع في نبذة من شعر المنطقة المسموع ، مرجع سابق ، ص 133.

فالشاعر استخدم الكثير من الإشارات التاريخية والإحالات لإنجازات وكثير من الانتصارات عبر التاريخ منذ دخول الاستعمار واشتعال المقومات الشعبية بداية من مقاومة الأمير عبد القادر ، ومقاومات متتالية كلها معلومات ضاربة في أعماق التاريخ فيشير الشاعر إلى إطلاعه على أخبار الماضين، وهو مولع بالتاريخ ففاضت قصائده بذكر الحوادث التاريخية قبل و أثناء الثورة التحريرية. فيبرهن الشاعر على ثقافته الواسعة في متابعة التاريخ الوطني والاستعانة بمعلومات لم يكن سهلا الإتيان بها لولا ثقافة الشاعر وخلفيته التاريخية ، التي تناص معها وأحسن توظيفها بصورة خفية وسياق جميل في استخدام الألفاظ والمصطلحات وتوظيف المعلومات التاريخية.

" فالشاعر يجد في الشخصية التاريخية رموزا للتعبير عن تجربته الشعرية ومعادلا موضوعيا لواقعه وحاضره فهو حين يستدعي هذه الشخصيات يستحضر معها ما تحمله من أبعاد نفسية وروحية، وليقوم الاستدعاء بوظيفته في النص ينبغي ألا يغفل الشاعر صورة الشخصية المستدعاة في ذهن المتلقي"¹.

وعليه لكل شاعر طريقته وفنياته وتعامله مع النصوص الغائبة من أحداث وشخصيات، وأفكار دينية سياسية، تاريخية، فالشاعر يمر بمراحل زمنية تزيد تجربته تنعكس على نصه الذي هو بمثابة الصنعة التي جبلوا عليها فهم يحسنون ترتيب الألفاظ واستخدام المعاني وأسرار البلاغة والبراعة في توظيف المعلومات والشخصيات التاريخية والتحكم الجيد في أبعاد الرمزية ، فعمل الجيل الماضي على توريث ما ورثه عن سابقه لذلك نجد الشعراء مولعون بتقليد بعضهم البعض، فأخذوا عن غيرهم عن طريق السماع والمجالسة ، فاستعاروا من الماضي للحاضر.

¹ - عيسى بن سعيد الحوقاني ، التناس في شعر نزار قباني ، مكتبة الغبراء ، سلطنة عمان ، ط 1 ، 2012 ، ص 155.

خاتمة :

وفي الأخير نجد أنّ الشاعر الشعبي لعب دورا هاما في تدوين محطات التاريخ في الوقت الذي لم يكن هناك بديلا لتدوين الأحداث باختلافها عبر مراحل التاريخ الطويل ، فوجد الشعب الجزائري في القصيدة الشعبية متنفسه الذي يشكوه همه ويجدد من خلاله عزيمته فيطرد الخوف والهزيمة إيمانا منه بتفضيته العادلة والنصر الذي دفع مقابله ضريبة غالية على أن يعيش سعيدا أو يموت شهيدا ، فسجل بصدق وإيمان الأحداث لتكون نعم الزاد والمرجع في تدوين تاريخ ونضال الشعب الجزائري طيلة حقبة انعدمت فيها جميع الوسائل ، إلا ما وجد عند العدو وأذنا به ، وهماهي مراكز البحث وتدوين التاريخ تستنطق الكثير من القصائد كمرجعية ووثائق تاريخية هامة ، لعبت دورا كبيرا أثناء الثورة قبلها و بعدها لقول الشاعر المجاهد الملقب بشاعر أولاد نائل المرحوم يحيى بختي واحد من بين الكثير من شعراء الجزائر يقول ¹ :

اقتلنا المئات من جيش عدونا في مناعة² كم خلىنا جثات
يا سامع هذا الكلام اتصدقنا مازدنا ولا نقصنا هاك اصرات
تبقى في التاريخ و اترحم عنا واحنا موجودين و بعد الممات

" مما جعل الشاعر الشعبي يتكفل بدور المؤرخ وهي خاصية بقدر ما نعتبرها أمرا طبيعيا ومبررا بقدر ما تشير بعض التساؤلات ، ومنها ما يتعلق بالقيمة الأدبية والجمالية لهذا الشعر الذي أخذ على عاتقه أن يصف ويصور أحداث التاريخ في نفس الوقت"³ .

¹ - يحيى بختي ، المسيرة ، مرجع سابق ، ص 56.

² - مناعة : منطقة جبلية وعرة بضواحي مدينة الجلفة سجلت بها معارك ضارية .

³ - عبد الحميد بورايو ، في الثقافة الشعبية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص 130.

قائمة المصادر و المراجع :

1. ابن خلوف الخضر ، الديوان ، تحقيق : محمد بخوشة ، ابن خلدون للنشر ، تلمسان ، 2001 .
2. ابن قيطون محمد ، مخطوط ، جمع أحمد سعدون .
3. أحمد الأمين ، صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة ، 2007
4. أحمد قنشوبة ، البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، دار سنحاق الدين للكتاب ، الجزائر ، 2009 .
5. أحمد قنشوبة ، الشعر الغض اقترابات من عالم الشعر الشعبي ، منشورات رابطة الأدب الشعبي ، 2002.
6. التلي بن الشيخ ، دراسات في الأدب الشعبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
7. التلي بن الشيخ ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945)، الشركة الوطنية للنشر الجزائر، 1983.
8. التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
9. حسين خمري ، الطاهرة الشعرية العربية / الحضور والغياب ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001 .
10. خديجة المغنج ، استلهام التراث في شعر عبدالعزيز المقالح ، وزارة الثقافة ، صنعاء ، 2004 .
11. خرفي صالح ، الشعر الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، د ت .
12. سالم علوي ، أصالة الشعر الشعبي ، أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية ، الأغواط، من 17 إلى 21 نوفمبر 1999.
13. سامح رواشدة ، القناع في الشعر العربي الحديث، مطبعة كنعان، الأردن، ط1، 1995.
14. عبد الحميد بورايو ، البطل الملحمي والبطلة الضحية / في الأدب الشفوي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998.
15. عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية/التاريخ والقضايا والتجليات؟ دار أسامة، 2006.
16. عبد القادر فيطس ، الشعر الملحون الديني الجزائري/ قضايا الموضوعية وظواهره النفسية ، دار سحنون، ج2، 2008.
17. عبدالله ركيبي ، الشعر الديني الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط1، الجزائر ، 1981 .
18. علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
19. عيسى بن سعيد الحوقاني ، التناص في شعر نزار قباني ، مكتبة الغبراء ، سلطنة عمان ، ط1 ، 2012 .
20. محمد خطابي، لسانيات النص/ مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991.
21. الميلود قويسم ، المجموع في نبذة من شعر المنطقة والمسموع ، ج 1 ، مخطوط .
22. يحيى بختي ، المسيرة ، ديوان الشاعر ، جمع عبد الرزاق بختي ، منشورات وزارة الثقافة، ط1، 2006.